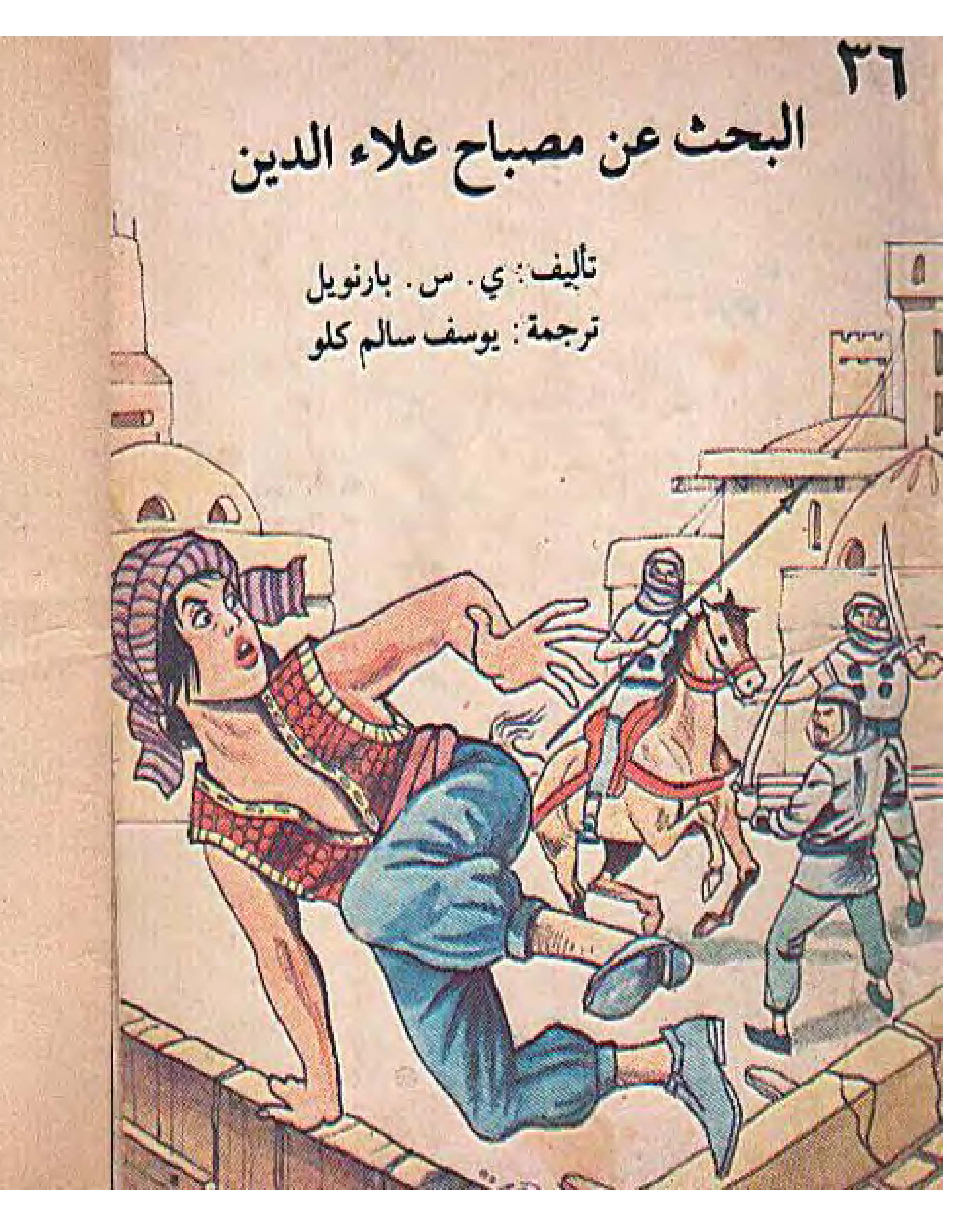


٣٦

البحث عن مصباح علاء الدين

قصة : ي . س . بارنويل

ترجمة

يوسف سالم كلو

الناشر : مطبعة جامعة اوكسفورد

لندن

رني اهداء هذه المحاولة المتواضعة الى اخي
زيز النقيب عبد الحافظ احمد عبد الله

الطبعة الاولى ١٩٨٧

الفصل الأول

اللّصُ الصَّغير

صرخ «جوده» الخباز : «قف ايها اللص !» وتبعه صراخ محمود التركي «قف ايها اللص !»

وكذلك حسان ابن صانع الآنية الفخارية :« قف ايها اللص !» وارتفعت الصيحات من السوق عالياً في الهواء .. وقد اتتْ اعلى من كل الصرخات القادمة من حناجر الشحاذين واللصوص الجافة في بغداد ! وعلى ناصية الشارع .. بعيداً عن السوق .. كان علي يركض وشعرهُ الأسود يتطاير خلفه وقد سرق قطعة حارة من الكعك من «جوده» الخباز البدين .

علي ذو البشرة السمراء والأصابع السحرية السريعة .. اللص الصغير .. انه يركض باقصى قواه كفتى شارع .

ثم صرخ الجمع : «توقف ايها اللص !»

وكان علي يَعيْ تماماً ما الذي سيحدث لو تمكنوا من القاء القبض عليه اذ ان اي لص يقبض عليه، متلبساً في بغداد وتقطع يده اليمنى .. هذه اوامر «جعفر» كبير مستشاري هارون الرشيد .. خليفة بغداد الشهير — الحاكم العادل — .

كان علي لاينوي ان يعطي يده اليمنى لاجل مجرد قطعة واحدة صغيرة من الكعك تحرق اصابعه .

انه يتخيل حال رجال «جعفر» ذوي المعاطف السوداء حيث يحمل احدهم فأساً براقة حادة على كتفه .. وكان هذا سبباً يجعله يركض باقصى

سرعته .. وكان يتبعه جمعٌ من الرجال ذوي العمامات الخضراء والقمصان والسراويل الخضراء والزرقاء. رجال ذوي اذرع تشير واصابع تتهم، وهم يصرخون جميعاً «قف ايها اللص !» انَ علياً يعرفُ مدينة بغداد .. كل زاوية من زواياها .. ولذلك فانه كان يستدير من شارعٍ الى آخر وكأنه حيوان يبحث عن فريسته .. واختار الطريق الأقصر بين جميع الطرق المؤدية الى قلب المدينة حيث الجدران الملساء والطرق الفرعية الضيقة والمظلمة .. هناك كان يعيش علي مع جدته المتقدمة في السن ..

وفي نفس الوقت الذي وصل فيه علي الى مخبئه .. تلاشت جلبة الراكضين خلفه فالتقط انفاسه .. إنه يشم الآن رائحة قطعة الكعك اللذيذة .. انها رائحة منعشة تداعبُ انفه الآن .

انحنى وانزلق عبر ثقب في الجدار حيث الأمان .. وراح يلتهم بشراهة الكعكة المغطاة بالسكر الأبيض .

وبعد فترة استراحة قصيرة نظف علي كل اصبع من اصابعه بثوبه الأحمر .. وانزلق خارج الدار .. وتجول في الطرقات .. وبينما هو يتجول سمع اصوات اجراس آتية من بعيد ..

واقترب من مصدر الصوت شيئاً فشيئاً ليستطيع مشاهدة الممر الضيق بين البيوت العالية، كانت الجمال تمرُ جملاً خلف جمل .. وكان كل واحد منها يحمل بضائع ثقيلة .

وكان يمشي بينها رجال ملثمون .. في ثياب بيضاء طويلة يرتدونها وهم يصرخون ويتكلمون بلغة غريبة .

ولما اقترب علي منهم استطاع ان يسمع عبارات غير مفهومة .. ولاحظ التراب الأحمر يغطي الجمال ورجال القافلة .

وقد كانت القوافل قبلهم دائماً تأتي مغطاة بالتراب الأحمر معلقاً بالصوف الذي يجلبونه لبغداد من جبال الشرق .

لقد كانت رائحة الجمال مثيرة لعلي لانها كانت تحمل معها قصصاً غريبة عن المغامرات التي قام بها اصحاب هذه القوافل، وقد كان علي يجلسُ في ليالٍ كثيرة حول النيران التي توقدها قوافل الغرباء ويستمع باهتمام الى رواياتهم ومغامراتهم .

هذه الحلقات التي كانوا ينظمونها قريباً من نهر دجلة .

لقد كان يطلب كثيراً من منظمي هذه السفرات ان يصطحبوه برفقتهم .. هو المغامر المشغف بالأسفار .. الى بلاد اليمن حيث كان يتوق لزيارة الحجاز وربما ابعد، الى القدس او حتى الى دمشق .

ولكنهم كانوا يسخرون منه دائماً .. وعندما كان يلح في الطلب والسؤال كانوا يضربونه او يسمعونه كلمات ثقيلة نابية .. لابعاده عنهم .

وبعد ساعة كان علي جالساً في حلقة مصطفى راوي الحكايات ..

وكان مصطفى يصرخ : «اسمعوا قصتي !»

وكان الناس مزدحمين حوله حتى ان علياً وجد طريقه الى محل جلوسه بصعوبة بين الناس المتزاحمين حول مصطفى والطالبين سماع حكاية «علاء الدين والمصباح السحري» .

لم يكن علي بقادر على رؤية مصطفى ولكنه كان يسمع صوته ويعرفه .. مصطفى افضل من يروي حكاية في بغداد .

وكان علي يحاول ان يجد له مكاناً جديداً يشاهد منه مصطفى ولكن ظهور الرجال العريضة كانت هي الشيْ الوحيد الذي يقدر أن يراهُ .

«كان في قديم الزمان ذات مرة ان عاش خياط فقير له زوجة وولد

واحد اسمه علاء الدين» .

وكان صوت مصطفى يعبر بوضوح ونعومة فوق رؤوس الحضور الذين كان كل واحد منهم قد احنى رأسهُ واسند حنكه الى يديه .. فاستطاع علي ان يميز الآن راوي الحكاية وقد جلس على بساط احمر .. واردف مصطفى :

«وتوفي الخياط .. ولاحظت والدة علاء الدين أن ...!» .

وعندما تتابعت القصة رفع مصطفى ذراعيه وصوته عند كل عبارة مثيرة .. وكانت رؤوسهم تنحني وتصدر اصواتاً عميقة تهمس «آه» .

«وفي ذات يوم جاء رجلٌ غريب وسأل علاء الدين ...» وكان علي يسمع عبارة من هنا واخرى من هناك اذ ان انتباهه كان قد تشتت ، اذ انه كان قد رأى جيباً مفتوحاً في معطف احمر طويل وقذر كان يرتديه الرجل البدين الجالس امامه .. ان ما يوجد في ذلك الجيب كان اكثر اثارةً لعلي مما حدث لعلاء الدين ! .

«وكان الغريب ساحراً وقد سافر الى الصين وقال لعلاء الدين .. سوف اريك اشياء بديعة في الكهف يابني .. ثم ان الساحر صفق بيديه فارتفعت السنة من اللهب خارج نارٍ ظهرت امامها ..» لقد كان مصطفى الكبير حقاً راوي حكايات جيد، فعندما اخبر سامعيه عن النار التي ظهرت امام علاء الدين امتلأت اذهانهم بالتساؤلات وصرخوا جميعاً .. آه .. آه .

وكان احدهم يهز رأسه للآخر وخصوصاً الرجل البدين الذي كان جالساً امام علي ، وهو ذو المعطف الأحمر القذر .

ولذلك فانه لم يلاحظ يد علي التي امتدت الى جيبه .

ثم اردف مصطفى :

«فقفز علاء الدين .. داخل الكهف .. ووجد كل شيءٍ .. كما اخبره الساحر تماماً ..» .

وعثرت يد علي على درهم فضي كبير في جيب الرجل ذي المعطف الأحمر ثم تابع مصطفى :

«جلس علاء الدين في الكهف المظلم .. وشعر برهبة كبيرة .. فصرخ طلباً للمساعدة، على انه لم يجد من ينجده !

ففرك علاء الدين المصباح النحاسي الذي اخبره الساحر ان يحضره من الكهف .. فظهر فجأة وهج وضياء قوي جداً وظهر جنيٌّ لعلاء الدين من خارج سحابة الدخان !»

«وقال الجني لعلاء الدين : ما هي أوامرك ياسيدي ؟ انني خادمك !» فاحنى عليٌّ رأسه عند هذه العبارة .. لو انه فقط يقدر ان يعطي اوامره لجني كهذا .. فانه لن يبق جائعاً بعد الآن .. لن يعود بحاجة لسرقة الدراهم من الناس ثانيةً . وبينما هذه الأفكار تدور في رأسه رأى الرجل البدين يضع يده في جيبه ليتفقد نقوده فقفز علي من حلمه : ترى هل سيكتشف ما حدث له ؟

واردف مصطفى :

«فقال علاء الدين للجني الذي ظهر له في الكهف قائلاً : أخرجني من هذه المغارة ان كان هذا في حدود قواك .. وكان قد نطق عبارته بصعوبة عندما ..» .

ولكن علياً لم يكن يصغي .. بل كان يتلفت هنا وهناك .. كان هنالك رجالٌ امامه وخلفه .

رجال يحيطون به من كل الجهات .. كان يحاول الهرب وفكر في نفسه :

سوف لن اكون قادراً على الفرار ابداً بين هذا الزحام .. أن اكتشف الرجل فقدان نقوده .

وأخيراً انتهى مصطفى من حكايته فانزل يديه وانحنى يميناً ويساراً وقال : «الله عظيم»

فنهض الجميع ولم يعد يصدر سوى صوت النقود التي ترمى في اناء من النحاس امام مصطفى .. الذي كان يجمع هذه النقود التي جناها عن سرد قصته .. كان الرجل البدين ذو المعطف الأحمر قد انصرف بعيداً ..

وابتدأ علي يتحسس الدرهم المسروق يتلمّس معدنه ؛ انه يعني له مالاً كثيراً لولدٍ صغير سيحصل على خبز كثير وتمر يكفيه هو وجدته لعدة ايام .

* * *

في ذلك المساء قال عليٌ لجدته ..

– جدتي في عصر هذا اليوم سمعت مصطفى يحكي حكاية لطيفة عن مصباح عجيب .. يمكن للرجل الذي يملكه ان يصبح غنياً في لحظة واحدة اذ ان كل ما عليه هو ان يفرك المصباح فيظهر له جني .

فصرخت جدته بغضب قبل ان ينهي حكايته :

– ارمِ الدرهم المسروق في نهر دجلة !

فلم يهتم بكلامها بل تابع يقول :

– وسيقول الجني انا خادمك .. انا خادمك .. وكل ما آمره به ينفذه في خلال لحظات .. لو انكِ فقط تمتلكين مثل هذا المصباح يا جدتي !

– انتَ لص .. الق بالمبلغ المسروق بعيداً .

ولكن علي ضحك فقط وركض بعيداً خارج الغرفة الى الشارع .

الفصل الثاني

«قالاه»

لم يلقِ علي بالدرهم المسروق كما اخبرته جدته كما انه لم يشترِ به بعض التمر بل ذهبَ الى دار مصطفى .. راوي الحكايات الشهير الكائن خارج مدينة بغداد .. انحنى علي امام مصطفى وقال له باحترام بالغ : السلام عليكم !

فرد عليه مصطفى :

– عندما يظهر الشحاذون بمظهر مهذب .. يجب ان تراقبهم ... ماذا تريدُ مني ايها الصديق الصغير؟

– سؤال .. مجرد سؤال صغير .. ياصاحبي وسيدي .. هل ظهر جنيٌ حقاً عندما فركَ علاء الدين المصباح ؟

– بالتأكيد !

– وفعلَ كل ما أُخبر بان يفعله ؟

– كل شيْ !

فهمسَ علي في نفسه : – ياللعجب !

– ولكن ذلك كان مصباحاً سحرياً وقد حدثت القصة في جزيرة «قالاه» ..

– وهل هذه الجزيرة بعيدة عن مدينة بغداد ؟

– بعيدة جداً .. حتى ان نسبة قليلة جداً من سكان مدينة بغداد قد

رأتها .. فقط السندباد البحري ربان سفينة الأمير عمر ، التي تسافر مرة واحدة بالسنة الى هندستان ! .

فسأل الشحاذ الصغير :

– واين تقع هندستان ؟

– هندستان .. بلد يقع على الجهة الأخرى من تلك الجبال العظيمة في الشرق .. ولكن «قالاه» ابعد طريقاً من هندستان .. اليس هذا هو السؤال الذي تريد ان تسألني اياه ؟

– كلا .. يا سليل راوة الحكايات العظماء ولكن سؤالي هُوَ : ماذا يجب ان افعل حتى اجد المصباح العجيب ؟

– ايها الصبي الصغير اذا كان هذا هو سؤالك .. فأن احداً غيري لايعرف الأجابة .

قال مصطفى هذا واغلق عينيه وفرك راحتي يديه الواحدة بالأخرى ثم اردف :

– ما الذي ستدفعه لي لقاء الأجابة بمساعدتي يمكنك العثور على المصباح العجيب .. سوف تكلفك الأجابة ديناراً بأكمله .

– لقد فهمت .. ولكني لا املك ديناراً .. كل ما لدي الآن هو درهم واحد .. واخرج عليٌ قطعة العملة الفضية من جيبه ليريها لمصطفى الذي قال :

– هذا مبلغ كبير على شحاذ صغير مثلك ليمتلكه ..

فاقترح الشحاذ الصغير رداً عليه : – ليكن اذن كافياً كثمن لاجابتك !

فنظر مصطفى اليه باهتمام ثم قال :

– ولكن هناك شيئاً واحداً بخصوص هذا الدرهم ايها الصبي الصغير .. فبهت علي من كلامه وحدق بعينيه على الدرهم ليسمع مايقوله مصطفى حيث أردف : – انه مسروق ايها الصبي الصغير .. انك تعرف ذلك ، لقد سرقته من رجل بدين كان يرتدي معطفاً احمر قذراً بينما كنت اروي حكاية المصباح السحري .

ثم مَدّ مصطفى يده النحيفة بهدوء وقال :

– اعطني الدرهم .. ايها الصبي الصغير .. ساقبله رغم كل شيءٍ كثمن لاجابتي .

– هاهو .. يا ملك رواة الحكايات .. هاهو المبلغ الذي ادفعه لقاء سر مصباح علاء الدين العجيب .

والقى بالدرهم في يد مصطفى وقال له :

– والآن عليك بالأجابة .. انني انتظر .

فسأله مصطفى بعد ان دس الدرهم في حزامه .. وهو يشعر بعدم التأكد من الأجابة التي سيعطيها .. وفكر ثم قال بصعوبة :

– ماذا كان سؤالك ايها الصبي الصغير ؟

– ماذا يجب ان افعل كي احصل على مصباح علاء الدين العجيب ؟

– اصغ جيداً ايها الصديق الصغير واعطِ انتباهاً كبيراً لكلماتي .

– فهمس علي : سأفعل .

– اذا أردت ان تحصل على المصباح السحري ايها الصديق الصغير ....

– نعم .. نعم ايها السيد اكمل .

فقال مصطفى بتلعثم :

– يجب ان تنظر وتبحث عنه في كل مكان اعلى واسفل بينما تتمشى وبينما

ترتاح .. فقط بهذه الطريقة يمكنك ان تجد المصباح .

فصاح علي وقد قفز غاضباً :

– لماذا ؟ ايها الرجل العجوز .. لقد خدعتني ! الهذه الأجابة التافهة اعطيتك درهماً ؟

– الدرهم الذي سرقته ؟

– هذا فقط مايقوله الناس .

– ولكني اعرف من قسمات وجهك ان هذا ما حدث حقيقةً .

والآن اصغِ الي مصباح علاء الدين موجود في جزيرة «قالاه» ولكن شخصاً يسرق دراهم الآخرين لن يقدر ان يعثر عليه .. هذه اجابتي الحقيقية لسؤالك .. ولن آخذ الدرهم منك .

فخطف عليٌّ الدرهم من يد مصطفى .. وانصرف ببطء وانحدر عبر الشارع ينظر على الأرض .. ويفكر بعمق : ثم قال في نفسه :

لقد خدعني الرجل العجوز .. نعم لقد خدعني . ولكن ربما كان على حق . ربما من غير الممكن على لص ان يجد مصباحاً سحرياً ؟

وفي هذه اللحظة وجد نفسه ينظر في عيني «جوده» الخباز البدين وفكرة المصباح السحري تراوده .. واحس بقوة تدفعه نحوه .. فاقترب منه واعطاه الدرهم ثمناً لقطعة الكعك التي كان قد سرقها منه .

فتعجب الخباز من ذلك وسُرَّ بحيث انه اعطى لعلي قطعة اخرى من الكعك لان الدرهم لم يكن ثمناً لقطعة واحدة من الكعك في تلك الأيام ..فشعر بتحسنٍ وهو يأكل قطعة الكعك وتمشى على ضفة نهر دجلة .. وهو لايزال يفكر في المصباح السحري ويتساءل ... الا يزال لصاً ام لا ؟ ونظر الى القصور المشيدة على شاطئ نهر دجلة وتأمل فيها

وتمنى ان يكون احدها ملكاً له .. مشيداً بخبرة الجني المختبئ في مصباح علاء الدين .. هل حقاً ان اجابة مصطفى بشأن المصباح صحيحة ؟ ..

واذا كانت كذلك فان علي يجب الا يسرق بعد الآن ابداً ! يجب ان يجد المصباح .. المصباح وحده الذي سيمكنه من بناء قصر ابيض على حافة نهر دجلة .

ووصل قرب جسر القوارب حيث الناس مشغولين باعمالهم .. يتحركون بنشاط امام عينيه الحالمتين بملابس جديدة له ولجدته المسنة المسكينة .. الحلويات والكعك والخبز والتمر والماء النقي لكليهما .. جمال سريعة يقدر عليها ان يقوم برحلة الى هندستان .. هندستان .. ذلك الأسم الذي يرن في اذنيه منذ ان لفظته شفتا مصطفى للمرة الأولى .

كلا .. علي لن يسرق ثانية ابداً .

وسط دائرة من البحّارة الطوال القامة ذوي السراويل الزرقاء، قرب نهر دجلة، جلس صبي صغير يطرح الأسئلة

– «قالاه»

اجاب السندباد البحري بطل المئة رحلة :

– مالذي يجعلك تسأل عن هذه الجزيرة؟

– لقد سمعتُ ان مصباح علاء الدين العجيب هناك فيها.

فضحك السندباد البحري والبحارة الآخرون منه والتمعت اسنانهم في ضياء الشمس.

ثم سأل السندباد: وكيف عرفت ذلك؟

– لقد اخبرني بذلك مصطفى كبير الرواة!

فرد السندباد مندهشاً :– مصطفى اخبرك!. اذن لابد أن تكون

القصة حقيقية.

- لقد قال لي الناس أنك الرجل الذي يعرف كل البحار التي تمخر السفن في عبابها فهل هذا صحيح؟

فاومأ السندباد البحري برأسه وقال:

- كل البحار! وهناك بحاراً لم تمر بها سوى سفينتي!

- اذن فأنت تعرف «قالاه»

- قالاه أمرٌ آخر ايها الصديق الصغير.. قليلون جداً هم من شاهدوا «قالاه» بأعينهم.. لقد رأيتها مرة واحدة فقط.. ان لها شواطئ صخرية زلقة شديدة الأنحدار.. وتحلق اسراب كبيرة من الطيور حول صخورها العالية.. ثم هبت عاصفة من الشرق فردت سفينتي الى الخلف وبقينا الليل كله تحت رحمة هذه العاصفة وعندما حلَّ الصباح لم تعد نشاهد «لقالاه» أثراً!

- لقد سمعت الناس يقولون انك تبحث عن تلك الجزيرة منذ ذلك الوقت.

- هذا صحيح.

- اذن خذني معك في سفينتك.. ارجوك ايها السندباد العظيم، خذني معك! يجب أن اعثر على المصباح السحري.

- بامكانك ان ترافقني.. لانه مادام مصطفى قد روى لك هذه القصة فاني اعتقد انها حقيقية.

فوافق جميع البحارة وقالوا كرجل واحد «ليكن الله معنا».

وبذلك حدث أن صاحبَ علي الصبي الشحاذ السندباد البحري في سفره على سفينة «الأمير عمر» وابحروا الى رحاب العالم الواسع للبحث

عن «قالاه» وعن المصباح العجيب الذي يحقق اية امنية.

وقبل ان يسافر علي ذهب وودع جدته العجوز.. قائلاً:

- وداعاً.. ارجو الاتحزني لفراقي.. لانني عندما سأعود سأصبح اغنى من الملك سليمان وسترين معي!

لم تحاول جدته ان تثنيه عن عزمه ولكنها قالت:

- أنا سعيدة لانك سترافق السندباد في رحلة.. انه ربان عظيم.

- يجب ان اذهب اذن.

وتطلع الى الغرفة التي عاش فيها لعدة سنوات.. الضياء المشع من المصباح النحاسي.. الدخان الذي يجلب لعينيه الدموع قسراً.

الظلال التي تتراقص على الجدران الكثيرة الشقوق.

هناك جلست السيدة العجوز ورأسها بين يديها.

وعندما توارى علي عن عيني جدته.. ودلف الشارع، كان قد نسي كل هذه الأمور وكل مايفكر فيه الآن هو «الأمير عمر» سفينة السندباد الشهيرة.. وهي راسيه في الميناء.

وركض علي خلال الشوارع وصل مع ضوء القمر الى الميناء.. حيث الصواري العالية لكثير من السفن.. هذه السفن التي تبدو وكأنها تتدحرج بكسل على الماء. فدق قلبه بسرعة.. وكان يحمل متاعاً قليلة لاتزيد عن بطانية صغيرة يحملها قريب من صدره. دنا من السفينه والتي عرفها من بعيد «الأمير عمر» سفينة السندباد.

وسمع صوتاً عالياً يناديه:

- الى اين انت ذاهب يابني؟

- ساصعد على متن السفينة ياسيدي السندباد.

وبدقيقة واحدة كان علي يسحب الحبل مع بحارة السندباد وانزلوا الشراع فخبأ القمر وراءه وحجب النجوم عن الرؤية.

وشعر علي بقعر السفينة يبدو وكأنه يغرق مرة ويطفو اخرى تحت اقدامه. وسارت السفينه.. ببطء. فاجتازت مقدمتها البيوت النائمة على ضفة نهر دجلة.. واتجهت السفينه للجنوب صوب البصرة مليئة بالحيوية والسعادة.. وكان الصبي الشحاذ يرقص بين الحبال والقِرَبْ المملوءة ماءً.. وهو يضحك ويصرخ حتى قال له السدس: غوقظ النهر ايها البحار الصغير.. اهدا كي يتمكن الرجال من النوم.

فنظر علي حوله وتأمل ضوء القمر والظلال المتحركة والبحارة النائمين في بطانياتهم وكأنهم حزم من الثياب تملأ السفينة وفوقهم في المرقب صبي صغير يراقب المياه.. فقال السندباد:

- خذ بطانياتك واخلد للنوم ايها الصبي الصغير سوف يكون لك في الصباح عمل كثير تقوم به.

فبسط علي بطانياته واستلق على قاع السفينة.. وكانت بطانياته خفيفة من وبر الأبل ولكنها منحته الدفء عندما لفها حول ظهره وهو يتطلع الى السماء والنجوم وهو يتساءل عما تفعله في عليائها!

الله وحده يعرف ذلك.. ولذلك فانه استلق ونام بعمق.

ولم يستيقظ حتى سمع ضجيج البحارة حوله.. وقد اشرقت الشمس والبحارة يتراكضون في القاع وأقدامهم تقرع الأرض، فتحدث اصواتاً تشبه الطبول وامرهم أحد البحارة بصوت عظيم أن يغيروا الأتجاه كي تضرب الشراع ريح شرقية. وضربت الريح الشراع فاستجابت السفينة الجميلة لها في حركتها والأمواج البيضاء تتسابق لتصدم مقدمة القاع..

وعلي يقف مع السندباد وهو يتعلم منه كيف تعد السفينة لتسير عكس اتجاه الرياح.

قال السندباد ضاحكاً:

- والآن قد حَلَّ النهار.. نحن الآن قريبون من «كوت العمارة» بعيداً عن بغداد وها انت تتجه الى المكان الذي تبحث عنه.. ايها الصديق الصغير ابشرك.. سوف تصبح بحاراً حقيقياً.. افتح عينيك وسجل كل مايقع عليهما.

وبعد فترة كان علي جالساً وكأنه طيرٌ مستقرٌ على شجرة.. شجرة ترتفع وتهبط حتى انك لن تعرف اذا ماكان هو الذي يرتفع ويهبط ام ان ماء النهر هو الذي يرتفع وينخفض

وأبتدأ يشعر بالمرض.. واغلق عينيه ولكن ذلك لم يسعفه.. لأنه شعر بان روحه قد بدأت حي الأخرى الآن وكأنها ترتفع وتنخفض..

وصرخ السندباد:

- انزلوا الفتى الى هنا.. انه مريض.. ضعوه في الظل.

واستلق علي هناك نهاراً وليلة حتى عبروا مدينة «اوبيلا» حيث يلتقي دجلة بالفرات.

واخيراً وصلتْ سفينة «الأمير عمر» الى البصرة وشعر علي بعدها بحركة جديدة للسفينة.. فتساءل:

- اين نحن؟ الأمواج تبدو غريبة.

الفصل الثالث
السندباد البحري

فأجاب السندباد:

– الذي تشعر به هو تيار الخليج ايها البحار العظيم.

فقال علي مغلقا عينيه: سوف اموتُ ايها السندباد العظيم.

– ستنام الآن.. وستصبح بحالة جيده حال دخولنا البحر.

لم يصدق علي كلمات السندباد ولكنه غط في النوم ليوم وليلة اخرى.

وعندما استيقظ شعر بتحسن فخرج من بطانيته قائلا: انا جائع.

فأعطوه تمراً وماءاً.. فأكل بمرح وقذف بالنوى على سطح السفينة.

فتساءل السندباد:

– ماذا قلتُ البارحة؟ ها أنت تعود الى صحتك.. وها نحن قد غادرنا البصرة واصبحنا اقرب اياماً اخرى الى الجزيرة المبتغاة.

فقال علي:–

– «قالاه..قالاه» والمصباح السحري.. نعم ايها السندباد العظيم.. لقد كدتُ ان انسى لماذا انا على سفينتك!

ويوماً بعد يوم كانت «الأمير عمر» تبحر جنوباً بأتجاه ذلك الجزء من البحر الأزرق العريض حيث تقع «قالاه».

وليلة بعد ليلة كانت النجوم تعين البحارة على معرفة الطريق.. انها لرحلة بديعة مصحوبة برياح مُساعدة.. يرسلها الله على المياه. وكان كل البحارة من المؤمنين الطيبين. اذ كان القبطان يدعو بحارته خمس مرات في كل يوم للصلاة.. ويقفون على مؤخرة السفينة حيثُ يكبّر السندباد ثلاث مرات «الله اكبر» فيهرع البحارة اليه:

«لا اله الا الله .. محمد رسول الله» «حيَّ على الصلاة!»

ويدير البحارة اوجههم صوب القبلة في مكة المكرمة، المدينة المقدسة، ويصلون بصوت مرتفع.

وكانت تدفع السفينة ريح جيدة في كل الجنوب.. وبعد عدة ايام جميله صرخ علي من المرقب المرتفع:

– الأرض.. الأرض.. استطيع ان ارى الأرض.

فأخذت ارجل البحارة تطرق سطح السفينة، وبدت كأنها طبول تقرع.

وهرعوا لمشاهدة هذه الأرض.

فصرخ السندباد:– هاهي «قالاه» هلم ايها الصديق الصغير يبدو انك سترى «قالاه» اخيراً.. اننا الآن قريبون جداً منها.

ورأوا اسراباً من الطيور تظهر وتختفي فوق الجزيرة.. فقال السندباد:

– بعد قليل سنبدأ بالبحث عن المصباح السحري.

واصدر بضعة أوامر.. أُنزلَ بعدها اكبر اشرعة السفينة.. وتراكضَ اثنان من البحارة الى المرساة.. وادار السندباد دفة السفينة بنفسه صوب طبقة الرمال.. فتلاطمت بها امواج ضعيفة.. فصرخ السندباد:

– ارموا المرساة!

واستقرت السفينة قرب الشاطئ، فصرخ البحارة «الله اكبر» وقال السندباد «الحمد لله» لقد وصلنا الى «قالاه» ولكن الشمس تهم بالغروب فلنجمع بعضاً من الاخشاب ونشعل ناراً.. ولنجد مياهاً صالحة للشرب.

قال هذا وقفز الى امواج الشاطئ الضحلة فتبعه علي والبحارة

بسرعة.

ولم يأخذ البحارة وقتاً طويلاً لجمع الأخشاب.. ايجاد ماء صالح للشرب بين بعض صخور الجزيرة .. وبعد تناول الطعام خلدَ البحارة للنوم واخذوا قسطاً من الراحة.

ولكن علي بقي قرب النار في موضع معاكس للربان.. ولكنه لم يكن متحمساً للأستلقاء.. بل اخذ يلقي ببعض الأخشاب في النار بين آونة واخرى.. بحيث اصبحت السنة اللهب عاليةً وصنعت ظلاً كبيراً للسندباد على الصخور وراءهم.. وهنا قال السندباد:

- غداً صباحاً.. وفي وقت مبكر سوف تتسلق ايها الصديق الصغير هذه الصخور بمفردك..

فتساءل الصبي الصغير بصوت خفيف وكأنه يريد ان يسمع نفسه: - بمفردك؟

فأومأ السندباد برأسه بالأيجاب:

- تقول الأسطورة بان سواحل «قالاه» يجب أن ترسل الى جبالها صبياً صغيراً يتيماً بمفرده.. أولستَ يتيم الأبوين؟ ياعزيزي.

- ولهذا وافقت ان تأخذني معك في هذه الرحلة أيها السندباد الحكيم.

قال عليٌ هذا وضحك.

- هذا صحيح سوف تكون اول فتى في العالم تقع عيناه على شواطي «قالاه» وان ترى صديقة الله الصغيرة.. ستكون في نفس الوقت قريباً من مصباح علاء الدين.

- اذن سأتسلق هذه الصخور كالقرد.

فأمره القبطان بالنوم والاستراحة بينما نهض هو وفيما هو يذهب قال

له:

- نم واستجمع قواك لغدٍ.. فأنه سيكون يوماً عظيماً لجميعنا..

وفي اليوم التالي وقف الرجال في اسفل الصخور المنحدره بينما ربط علي حبلاً في وسطه وتسلق اعلى ثم اعلى والرجال يراقبونه، وسحبَ علي الحبل وراءه شيئاً فشيئاً.. وكلما كان علي يرتفع اكثر كانت نهاية الحبل تقصر ثم اختفى علي ونهاية الحبل توترت تماماً ولم تعد تتحرك.. قال احدهم:

- بالتأكيد علي يقدر أن يتسلق كالقرد، يجب عليه الآن أن يربط النهاية الأخرى حول الصخرة.

فقال السندباد: انه يتمتع الآن بمرأى صديقة الله الجميلة.. بأم عينيه.

ووقف الرجال دون تململ ورؤوسهم شاخصة نحو الاعلى.. منتظرين ظهور علي ثانيةً.. ولكنهم لم يروا سوى السماء.. وهي الآن تشع بسبب الشمس المشرقه التي تتوسطها.. وكانت اصوات سرب عظيم من الطيور تسمع من بعيد.

وهنا صرخ بحار اسود البشرة وقد عيلَ صبره:

- ماذا يفعل الصبي في الجانب الآخر كل هذا الوقت؟

ولكن الآخرين بقوا يحدقون في الأعالي بصمت.. ثم صرخ آخر

- هاهو! لابد أن في فمه مايريد أن يقوله لنا، ها انه يهم بالنزول.

فقال السندباد:

- الله عظيم.. ها انه يحمل الحبل بعنايه.

وكان الحبل الطويل يتمرجح من جانب لآخر ويلامس الصخور بينما

كان علي ينزل شيئاً فشيئاً واخيراً قفز على الرمل قريباً من اقدام البحارة فسأله السندباد:

- لماذا رجعت؟
- آه لقد كادت يداي ان تحترقا انهما لم تعانيا من حرارة كهذه منذ ان هربت مع قطعة كعك من «جوده» الخباز.
- تعقلْ.. وأجب عن اسئلتي ياعلي. ماذا رايت هناك في الأعالي.
- لاشيْ اطلاقاً.. لم تكن هناك اية صديقة و..
- اتعتقد انه وقت مزاح؟ قل لي الحقيقة والا صفعتك!

وامسك السندباد بشعر علي وأخذ يشده بقوه.

- دعني. دعني ايها السندباد العظيم اني لا اعرف اسم هذه الجزيرة ولكنها بالتأكيد ليست «قالاه».

وبهزّة قوية امره السندباد بان يخبره بصورة دقيقه عن كل مارآه في اعالي الصخور.

- لقد قلتُ لكِ ايها السندباد العظيم بان ليس هناك سوى العديد من الصخور لا اكثر ولا اقل؛ ولكني رأيت في الأسفل بعض الماعز ورجلين وكوخ بسيط.. وكان الرجلان يتجولان. احدهما كان بطولك وربما كان اكثر طولاً منك وكانت لحيته بيضاء كالحليب.. والرجل الآخر قصير وسمين وكانه قربة ماء مملوءة ولكن حديقة الله التي تكلمت عنها لاوجود لها.. ولذلك فان هذه الجزيرة لايمكن ان تكون «قالاه».

فصرخ السندباد: لقد خدعنا الشيطان.. ملك الظلمات.

فقال علي بنعومة:

- ليس هناك من داعٍ لان تتسلق الصخور لترى كل هذا.. يمكنك ان

تمشي حول الصخور على الرمال.

- في هذه الحاله يجب ان نذهب ونلقي نظرة على هؤلاء الرجال.. وليساعدك الله ايها الشحاذ الأسمر.. اذا لم تخبرنا بالحقيقة.. اصغوا ايها الرجال؛ انت ياابراهيم وانت ياحسين سوف تذهبان الى السفينة. عليكما بأملاء القِرَبْ بالمياه الصالحه للشرب واستعدا للأبحار وليتبعني البقية.

ثم قادهم الى الطريق من خلال الصخور وعندما ساروا على الرمال كانت الريح تضرب سراويلهم العريضة والعمامات الحمراء والخضراء التي كانوا يعتمرونها.. والطيور تصيح حول رؤوسهم وتلقي ظلالاً غريبة على الرمال بجانبهم.

الفصل الرابع

«قالاه» أم «مَولاك»

بعد فترة قصيرة وصلت الصحبة الى الجهة الأخرى من الجزيرة وهناك وجدوا اثار اقدام وبعد قليل توقف الرجال فجأة وصرخوا بأستهجان اوه.. آه لانه لم يكن هناك سوى كوخ، كما اخبرهم، علي وبعض الماعز مع رجل طويل مُسنّ ذي لحية بيضاء ورجل بدين وقصير فنظروا اليهما ولكن الرجلين لم يتحركا مطلقاً بينما كان السندباد ورجاله يقتربون منهما ولاحظ علي ان ما كان الرجلان يلبسانه لم يكن ليزيد على خِرَق ممزقة وبالية فقال السندباد لهما:

- السلام عليكم.
- واتجه صوب الرجل الطويل ذي اللحية البيضاء.

–من انتما؟ وماذا تفعلان على هذه الجزيرة؟

فأجابه الرجل العجوز بلفظة غير مفهومة مما جعله يصيح بغضب : – أجب..

فقال الرجل العجوز :

– انتَ فظٌ يابني!

وعَدَّلَ قوامه فبدا اطول من السندباد بكثير واعتقد علي انه رأى ابتسامة صغيرة تلوح على شفتي الرجل الغريب.. فقال له السندباد بهدوء : – ماهو أسمك؟

– اسمي «آسوكا» وانا مبعوث حاكم هندستان...

ففكر علي في نفسه

– هندستان! لقد قال هندستان!

وأثاره صوت الكلمة... كما كان يثيره دائماً.

– انا السندباد.. اسمي شهير في جميع انحاء العالم.. واشار عبر كتفه قائلاً : – وهؤلاء بحارتي!

وتعجب البحارة لاعطائه كل هذه المعلومات لرجل غريب لم تمر على مقابلتهم له سوى دقائق معدودة.. فقال «آسوكا».

–هذا خادمي «راحولو».

واشار للخادم وقال له : – لاتخف يا«راحولو» انهم لطفاء.

ولكن «راحولو» قال بصوت ينم عن الخوف: – انهم قراصنة!!

فقال «آسوكا» للسندباد :

– لاتهتم بما يقوله يابني.. انه مريض.. لقد كُنا في السجن لمدة عشر سنوات على هذه الجزيرة وكثيراً ماعُذِبْنا وضربنا بقوة من قبل الذين

يبقوننا هنا ضد ارادتنا.

– سجناء.. أرياني الرجال الذين جرأوا على سجنكم ههنا ايها السيد المحترم وسحبَ خنجره الذي كان يحمله دائماً في حزامه.

فابتسم الرجل العجوز ثم قال : – اهدأ يابني.. فأن اعداءنا في ثلاث سفن وهو يقومون الآن برحلة قرصنة!

فادار البحارة رؤوسهم صوب البحر ولكنهم لم يروا اية سفينة.

فسأل السندباد : – هل هذا يعني ان هذه الجزيرة هي ليست «قالاه» وانما مخبأ لمجموعة من القراصنة الأشرار؟

فأجاب «آسوكا» : – هذه هي الحقيقة ياصاحبي.. هذه ليست «قالاه» انها تدعى «مولاك»!

– وماهو لون العلم الذي تحمله سفينة هؤلاء القراصنة؟

– انه علم اصفر وفي وسطه دائرة حمراء.

– آه هذا علم قراصنة القمر الأحمر الدموي.

واصفر وجهه لمجرد نطقه بالأسم وصرخ بالبحارة :

– ليس لدينا دقيقة واحدة لنضيعها يجب ان نبحر حالاً.

– انك على حق ياصاحبي.. ارجوك ان تأخذني انا وصاحبي على سفينتك.

– سوف آخذكما معي بالتأكيد.

– سوف تكافأ على خدماتك يابني.

– قال الرجل العجوز هذا وهو يمشي بين الصخور ثم دَلَفَ في كهف كبير.. واخبر السندباد علياً أن يرجع الى السفينة راكضاً بقدر استطاعته ليخبر «ابراهيم» كي يستعد للأبحار حالاً.. ارسل احد رجاله لـ...

الوضع من صخرة عالية.. واخبر اخرين بالبحث في الكهوف حيث يخبيء القراصنة كنوزهم المسروقة. وكان علي يركض بكل قواه ينزل في حفر وتغوص قدماه في مياه وتدور في ذهنه فكرة مخيفة :

«ماذا لو أن القراصنة عادوا الى الجزيرة قبل ان تبحر سفينة السندباد؟»

وعندما وصل علي الى السفينة كان ابراهيم ينظر الى البحر بحذر، فسأل علي : – هل رايت اية سفينة؟

– لماذا لاتنظر بعينيك هناك ثلاث سفن قادمة نحونا!

وكانت هناك فعلاً ثلاثة سفن قادمة من جهة الشرق.

فصاح «بأبراهيم» قائلاً :

– انهم قراصنة! هؤلاء عصابة القمر الأحمر ياإبراهيم!

– وكيف عرفت ذلك يافتى؟

– هذه ليست «قالاه» انها مخبأ لعصابة من القراصنة الذين لاصاحب هم سوى الشيطان.

– اذن يجب ان نغادر هذا المكان بسرعة الريح!

– اني عائد لأصطحب السندباد والبحارة بسرعة.

واطلق ساقيه للريح.. عائداً الى السندباد وراجياً ان يكون الرجل الذي قد صَعَدَ للمراقبة قد رأى السفن الثلاث واخبر السندباد بالموقف.

. . . .

وكان هذا ماحدثَ فعلاً.. حيث قابل علي في منتصف الطريق السندباد والبحارة وهم يسرعون تجاه السفينة.. ولكن سرعتهم هذه لم تكن لتُسير السندباد لأنهم كانوا يحملون اثقالاً وبضائع. فصاح علي :

– اسرع ايها السندباد.. والا سيلحق بنا القراصنة هنا!

– اعلم هذا ولكن جيوب الرجال مليئه ذهباً وفضة من كهوف القراصنة السرية.

– لقد وجدت اذن كنز القراصنة المسروق؟

– نعم وأي كنز! العديد من الصناديق المليئة بالذهب والفضة حتى اغطيتها.

– وحالما وصلوا الى «الأمير عمر» كانت السفن الثلاث تغير اتجاهها صوب الجزيرة فصرخ السندباد :

– اسرعوا ايها الرجال... اسرعوا.. فان سفن القراصنة قادمة!

وكان السندباد اول من وطئت السفينة قدماه ثم تلاه بقية البحارة وبقي علياً اخيراً ليفسح المجال لصعود «آسوكا» و«راحولو» اللذين لم يقدرا على الأسراع. وعندما وصلا ساعدهم السندباد للصعود الى السفينة.

– اقطعوا حبل المرساة.

– فملأت الريح الشراع.. وابحرت السفينة والأمواج تلاطمها.. فألقت برشات من الماء المالح على البحارة.. وحمد البحارة الله على هروبهم من الجزيرة.

وبينما كان البحارة يسرعون لادخال السفينة الى عرض البحر جلسَ «آسوكا» بهدوء في المؤخرة.. وهو يحادث السندباد وفتح حرّة صغيرة كان علي يحملها له بينما كان هو يتسلق على ظهر السفينة.

فتدحرجت خارج العرّة «١٢» لؤلؤة جميلة الى يدي «آسوكا» وهي تبرق كالحرير الأبيض في ضوء الشمس.. ففتح السندباد عينيه قائلاً :

– انها افضل مجموعة من اللآليء رايتها في حياتي!

فأومأ «آسوكا» برأسه موافقاً.. ثم قال :

– هذه اللآلىء أعطاها لي حاكم هندستان اذ اني اعمل في خدمته. كنت ساسددها ثمناً لأقامتي وتنقلاتي في اسفاري... ولكن حدث ان هاجم القراصنة سفينتنا ولم يبقَ على قيد الحياة بعد الهجوم سوي انا و«راحولو» فأخذونا الى جزيرة «مولاك» وقد سرق القراصنة هذه اللآلىء ولكني رأيتهم وهم يخبؤنها.. وقد استعدتها كلها.

فقال السندباد : – شكراً لله.

– ثلاث منها لخادمي «راحولو» وسابقي ثلاثاً منها لي والباقي لك يابني فخذها.. وحاول ان يضع اللألىء الجميلة بين يدي السندباد السمراء، ولكن السندباد رفض استلامها ووضع يديه وراء ظهره.

– لستَ بمضطر لتعطيني اي شيء ايها السيد الجليل.. فأني وبحارتي قد وجدنا الكثير من الذهب والفضة في كهوف القراصنة... لقد اصبحنا من الأغنياء ومن يعلم هل ستفلت سفينتنا من القراصنة الى الأبد ام لا؟ يجب ان لا نلقي المرساة من الآن وحتى بغداد!

ونظر السندباد الى الأعلى حيث الشراع ثم صاح :

– علي، تسلق الى الأعلى وارفع علمنا..

وصعد علي على الصاري وكان شعره يتطاير خلفه من الريح.

واستطاع ان يلاحظ اعلام سفن القراصنة والتي كانت تبدو صغيرة جداً من بعيد.. وظهرت منها ثلاث بقع حمراء علامة – القمر الأحمر الدموي – وكانت تفصل سفينة السندباد بضعة اميال عن سفن القراصنة. والرياح تشتد والأمواج البيضاء تضرب السفينة وتقلب بقوة.

وتدريجياً اخفت الغيوم ضياء الشمس.

فقال السندباد لعلي : سوف تحدث العاصفة يابني!

فقال آسوكا للسندباد : – هنالك شيئاً واحداً يمكنك ان تفعله، اذ هناك صخور قاسية الى الغرب من هذه المنطقة... فيجب ان تتجه الى الشمال.

فقال السندباد : – ولكن هذا سيجعلنا نقترب اكثر من القراصنة!

– نعم يابني.. ولكن كل القراصنة سيكونون مشغولين بتخليص سفينتهم من الأمواج العاتية ولن يكونوا قادرين على مهاجمتنا.. فيمكنك ان تبحر عبرهم وتنقذنا.. وستكون بأمان تام.. وعلى أية حال اذا ابحرت الى الغرب هرباً من القراصنة فانك ستصطدم بالصخور القاسية.

– برغم خبرتي في الملاحة فاني سأتبع نصيحتك يا «آسوكا» لانك اكبر سناً مني وقد يكون الحق معك.. سننفذ ماتقوله. علي.. اعط هذه السيوف والأقواس والنبال الى الملاحين يجب ان نكون مستعدين للقتال.

واستدار السندباد ليراقب القراصنة بينما كان البحارة يسحبون الأشرعة لتغيير اتجاه السفينة.. وقال :

– لم يعد هناك وقت.. استديروا الى الشمال... لن نستطيع ان نفعل شيئاً امام هذه الرياح.

فقال «آسوكا» : – الله وحده يعرف ذلك.. اعطِ الأوامر لتغيير الاتجاه.

وتكلم «آسوكا» بلهجة واضحة وبصيغة آمره.. فقال السندباد :

– كل مانأمله فقط هو ان يخلصنا الله ويمكننا من المرور خلال هذه الصخور.

فخاف علي كثيراً لانه راى السندباد قد فَقَدَ الأمَل.. فقال

«آسوكا» :
– لايوجد فتحات بين الصخور.
– فليحمنا الله آذن.. هذا كل مانقدر عليه وقد فعلناه!
– كلا يابني انقذ نفسك!

ولكن السندباد هز رأسهُ دون ان يفعل شيئاً آخر.

ولم يعد هناك متسع من الوقت لأن احدى السفن الثلاثة كانت قد اقتربت على نحوٍ استطاع معه علي ان يحسب عدد القراصنة.

– لايزال هناك وقتاً.. ادر الدفة وحرِك السفينة نحو الشمال الشرقي.. تعال واعطِ الأمر كما اخبرك.

ففتح علي عينه متعجباً عندما سمع الرجل العجوز يعطي أمراً للقبطان العظيم ولم يكونوا بعد قد فتحو الشراع عندما عدل السندباد قوامه وبصرخة قوية اعطى أمراً بان تدار السفينة الى الشمال الشرقي.

وتحرك البحارة بسرعة ووجل وصرخ ابراهيم : – سوف تغرق السفينة ايها الربان. فوقف الرجل العجوز باعتدال فظهر اطول من السندباد وصرخ بلهجة آمره:

– اذهب ايها السندباد وادر اتجاه السفينة بنفسك.. اني قبل هذا قد قدتُ الكثير من السفن في العواصف حتى قبل ان تولد.

فقفز السندباد الى الدفة بينما تحرك بقية البحارة الى الأشرعة وتسلق الرجل العجوز الى مؤخرة السفينة وهو يتأملها وهي تستدير والأمواج تلطمها من مقدمتها وحتى المؤخرة.

وفي تلك اللحظة اقتربت سفينة القراصنة الأولى واطلق بحارتها العديد من النبال صوبهم ولكن الرياح جعلت هذه النبال تخطيء

اهدافها. وببطء غيرت السفينة اتجاهها من الغرب الى الشمال ومنه الى الشمال الشرقي.

هي التي حملتها بحار عظيمة.. وارتفعت الأمواج اعلى من الصاري وملأت المياه سطح السفينة بينما يتجول البحارة بحيرة.. وكان «آسوكا» يراقب كل حركة من حركات السفينة حتى اعطى اخيرا الأيعاز بان يرفع احد الأشرعة الصغيرة لغرض محافظة السفينة على اتجاهها وكان هذا هو الأمر الأخير الذي اعطاه «آسوكا» قبل ان يدعو السندباد لان يستعيد زمام القيادة مرة اخرى... ثم اخذ الرجل العجوز يبتعد عن السطح لانه قد ارهق بسبب العاصفة... بينما كانت سفن القراصنة قد ابتعدت تماماً.

واستيقظ علي قبل شروق الشمس بساعة وبجانبه كان «آسوكا» مستيقظاً ايضاً.. والذي صار بأمكانه ان يستأنف رحلته بعد عشر سنوات من الأنقطاع على جزيرة «مولاك» فقال لعلي :

– نم.. ايها الصديق الصغير وسوف يأتي الصباح بعد قليل.

فاستدار علي وحلم لفترة قصيرة ثم بدأت كلمة «هندستان» ترن في اذنيه فنهض وسأل «آسوكا» قائلاً :

– قلت انك اتيت من هندستان ايها الرجل الفاضل، انني افضل ان اعطي حياتي لاكون قادراً على السفر الى هندستان.. هل ستأخذني الى هناك كخادم لك؟

فاجاب «آسوكا» : – سوف لن اذهب هناك الابعد مرور فترة. ولكن اذا رغبت في البقاء معي فسوف آخذك. وستكون لديك ملابس جديدة ترتديها ودينار تأخذه كل شهر.

–الله.. هل ستساعدني على ايجاد مصباح علاء الدين السحري؟

ولكنني اعرفُ رجلاً في جبال «سعود» ربما استطاع ان يُخبرك شيئاً..

–سأذهب للبحث عنه.. من هو؟

– أسمه بابا.. وهو يعيش في مغارة ولايقول سوى الصدق..

– ولماذا تريد ان تذهب الى «سعود»؟

– منذ عشر سنوات مضت استلمتُ امراً من حاكم هندستان.. والآن وبعد عشر سنوات مع القراصنة في «مولاك» فأنني قادر على الذهاب الى «سعود» لانفذ ما أمرت به.. واذا وعدتني الاتخبر احداً فاني ساقول لك سراً..

فأجاب علي بجدية : – انني اعدك!

– الحاكم له ولدٌ.. وهو امير صغير أحمر البشرة اسود العينين كبيرهما اسمه احمد. وكبير وزراء هندستان يريد ان يصبح حاكماً بعد وفاة الحاكم الحالي فسرق الأمير الصغير. واعطاه في لفة صغيرة الى بحارٍ كان مسافراً الى ارضٍ بعيدة. وارسل حاكم هندستان الكثير من الناس الى الجهات الأربع المسكونة ليجدوا ابنه الصغير ويعيده الى هندستان ولكنهم عادوا جميعاً يهزون رؤوسهم بحزن ولم يعثر احد على الأمير في أي مكان.

وبعد سنتين عاد هذا البحار ليخبر حاكم هندستان بان كبير وزرائه قد اعطاه الأمير في قماط وطلب منه أن يلقيه في البحر ولكن هذا البحار عندما وجد في القماط طفلاً نائماً بوداعة فأنه اعتنى بهذا الأمير الصغير وعندما انتهت الرحلة اعطاه الى أمراة في البصرة.

فسمع كبير الوزراء بداية قصة البحار وهرب خارج البلاد قبل ان يقدر احد على الأمساك به فامر حاكم هندستان البحار الصغير بان يرجع

«سعود» في البصرة وفي بغداد حتى اجده لانه يعتقد ان هذا الولد سيصبح سيد «هندستان» في المستقبل.. وقد عرفتَ انني أسِرْتُ بواسطة القراصنة وان كل فرد على السفينة قد قتل ماعدا خادمي «راحولو» وانا.. وقد عرفت قصتي.

فهمس علي : – الله.. ولكن كيف ستعرف الأمير «أحمد» بعد مرور كل هذه السنين.. انه الآن قد بلغ الثانية عشرة من العمر وربما اكثر وربما مات.

– لديك عقل ذكي ايها الصديق الصغير ولكنك لاتعرف ان كل امير من امراء هندستان يحمل علامة.

– اية علامة.. ايها السيد الفاضل؟ انني نشيطٌ في ايجاد الأشياء الخفية.

– حتى اذا كانت مصابيح سحرية؟ ثم ابتسم.

– هل اقدر ان ارى العلامة؟

– كلا ايها الصديق الصغير عندما تبحث عن مصباح سحري فأنه لا يستطيع ان يعطيك كل ما تطلب.

– وكيف يُمكنُ ان ترى هذه العلامة؟

– فقط الرجال المخلصون والقادة الحكماء والمتواضعون والمسنون والذين لايحبون كل ثروات العالم ولكن يخدمون الله، هم يرونها!

– وماذا سيرَوْن؟

– انه مثل الضوء البراق يظهر مشرقاً فوق رأس الشخص الذي نبحث عنه والذي يحمل هذه العلامة.. التي تجلب فرحاً لمن يراها!

وبدا صوته تعباً عندما لفظ هذه العبارة وكانه يختني، ثم أردف

ايها الأمير المسكين.

ثم انصرف علي في شمس الصباح الباكرة حيث رأى السندباد واقفاً عند مؤخرة السفينة يبحث بعيداً عبر البحر الخالي. فضحك السندباد ضحكة عظيمة ونظر الى السماء وصرخ.

لاسفينة. لاشراع في اي مكان.. سفينتي اسرع من اية سفينة اخرى في العالم... لقد تركت القراصنة خلفي ولم اعد اراهم!

فقال له علي.

لأنك اعظم البحارة ايضاً.

ولكنه قال في قلبة :

– عندما اخبرك آسوكا بأن تغير أتجاه السفينة خلال العاصفة فقدت أرادتك تقريباً.

الفصل الخامس

في بغداد

في اليوم التالي هبت ريح مساعدة فحملت «الأمير عمر» بهدوء الى موطن بداية الرحلة وكانت انظار البحارة متجهة نحو البصرة واذهانهم مشغوله بزوجاتهم واولادهم فقال السندباد :

– ايها الصديق الصغير ماالذي ستفعله بعد انتهاء الرحلة؟ فانت لم تجد المصباح السحري؟

– ليس بعد ايها السندباد العظيم فانني سأذهب لاخذ نصيحة «بابا» الصوفي الحكيم.

– وماالفائدة من ذلك اذا كان المصباح في جزيرة «فلاة»؟

– ربما كان بأمكان الصوفي ان يخبرني كيف اجد الجزيرة ايها السندباد!

لم يبتسم السندباد عند عبارة علي الأخيرة ولكنه سأله : –

–سوف ابحرُ قريباً ايها الصديق الصغير فهل ستأتي معي؟

–كفتى يعمل في المقصورة؟

سأل السندباد هذا لان عمله كان سابقاً في المرقب اعلى الصاري.

–نعم كفتى مقصورة. وسوف يكون لك نصيباً من الثروات المجنيه خلال الرحلة.

فجاء صوتٌ عال وواضح يقول :

–صديقنا سيأتي معي في المستقبل..

فالتفت السندباد وعلي ليريا «آسوكا» يقف في باب المقصورة ولحيته البيضاء تشع في الشمس.

–نعم ايها السندباد سأذهب مع السيد الفاضل الى ارضٍ بعيدة.

– واغلق علي عينيه وهمسَ مع نفسه «هندستان» فأمتلأت نفسه فرحاً.

وبعد عدة ايام كان كل من علي واسوكا يقفان على ساحل البصرة.

– لماذا لايمكنني ان ابقى معك هنا ايها السيد الفاضل؟ وكيف يمكنك ان تجدني عندما تأتي الى بغداد؟

– يجب ان تذهب ياعلي! سوف آتي الى بغداد حالما انهي اعمالي هنا سوف تجدني اذا ماجعلت تفكيرك وقلبك دليلين لك.. وداعاً.

وصعد علي، صبي المقصورة على متن «الأمير عمر» عندما ابتدأت تجد طريقها خلال غابة الأشرعه نحو شط العرب.. وابتدأت اخر مرحلة في الرحلة... وهي العودة الى بغداد. وصعد علي الى مكانه في المرقب في

اعلى الصاري، وحده جلس هناك شعر بانه كمن لاوطن له وانه ضائع كالأمير احمد من هندستان.

ومن بعيد كان يرى الف سقف... بغداد الغارقة في ضوء الشمس تيارات الأنهار في ضياء الصباح.. النخيل المهتز بلطف عندما تداعب الريح قمه.. الى هناك وصلت السفينة وقبطانها «السندباد العظيم» فنزل الى القاع وشكر الله على عودته سالماً من البحار والعاصفة الى وطنه في بغداد. وكانت غمامات من التراب تتحرك في السوق عندما كان علي يمشي على الشاطيء.

علي الشحاذ.. الذي اصبح فتى مقصورة وقد عاد من رحلة خطرة.. وبعد بضع خطوات على الشاطيء... اتى اليه اثنان من الفرسان يمتطيان الجياد وكانا يشيعان ضوضاء كبيرة في الأرجاء.

فصاح احد البحارة لعلي :

– انتبه يافتى فانهما من خيالة جعفر..

ثم صرخ به صوت خشن : – هل انت علي الكلب الصغير؟!

وشعر علي بحبل يطوق عنقه وسحبه الخيّال قريباً اليه، ونظر اليه بقسوة.. فتجمع حشدٌ من الناس حوله بينما قال الآخر :

– انه هو!

فتدخل السندباد قائلاً : – ايها الفارس ماالذي تفعله؟ الاتعرفني؟

– انني السندباد وانت تأمر واحداً من افراد طاقمي.. دعه يذهب واذا رفضت فأنني سأجلب لك المتاعب!

وَصَعُبَ على الحشد ان يصدّق مسامعه، اذ انهم لم يسمعوا احداً من قبل يخاطب رجال جعفر بمثل هذه الخشونة حتى علياً اعتقد ان رجال

جعفر سيأخذون السندباد الى السجن.

– دعه يذهب.. انني في طريقي الى هارون الرشيد وسأخبره بأن رجال جعفر قد عاملوا واحداً من اصدقائي بقسوة امام عيني.

فأجاب احدهما : – هذا الكلب الصغير هو «علي» اللص. ابتعد عن طريقنا فاننا سنأخذه الى جعفر.. اسرت ايها اللص.

وكان على علي ان يركض بين حصانين فان سقط فان الحبل سيكسر عنقه.. فتألم رأسه وتراقصت أشباحٌ امام عينيه، فقط اذناه اعطتاه راحة قليلة لانه سمع السندباد وهو يصرخ :

– تشجع ايها الصديق الصغير فأني ذاهب الى هارون الرشيد وسأنقذك.

وعندما ابطأ الفارسان فانهما كانا ذاهبين خلال دهليز مظلم يؤدي الى باب في جدار عالٍ.. يعرفه كل شخص في بغداد.. انه يؤدي الى السجن تحت الأرض.. وان اي شخص يؤخذ الى هناك فأنه يختفي الى الأبد، واغلقت البوابة الضخمة وراءهم ودفع علي الى ممر ضيق اتته منه رائحة برد مخيفة.. هواء رطب مزعج.. فسقطَ علي على الأرض بخشونة وسَمعَ صوت مفتاح يدور في القفل.. وفي الظلام كان علي يسمع فيما حوله اصوات رجال يتألمون وصرخات تطلب النجدة او تطلب الطعام والماء.. والرائحة المخيفة المنبعثة من الموتى جعلته يصاب بالغثيان.. الفتى المسكين.. غطى اذنيه بيديه وبدأ يدرك اين هو.. وماذا سيحدث له.. وفي اللحظة التاليه شعر علي باصابع باردة تتحرك على ظهرة وتلمس ذراعه، فصرخ فزعاً فطمأنه الصوت قائلاً :

– لاتخف! انك لاتزال على قيد الحياة وهذا جيد!

– من أنت؟

– سجين آخر في هذا العالم المظلم.

وكانت نبرة الاجابة واضحة... انها لايمكن ان تكون لشخص من بغداد ربما كانت شبيهه بلهجة «اسوكا» فقال علي :

– انك تتكلم كسيدي .. هل انت من هندستان؟

– بالتأكيد.. من هو سيدك؟

– سيدي هو سفير هندستان..

قال علي هذا بفخر ثم أردف:

– لقد سجن عشر سنوات في جزيرة نائية ولكنه الآن في البصرة وهو قادم الى بغداد كي.....

– سوف لن يراك ثانيةً لانك في السجن... سجن لم يخرج منه احدٌ من قبل..

– هذا فقط مايقال في بغداد... لدي صديقٌ يعرف هارون الرشيد، وسيحصل على مساعدة منه.

– هذا السجن تحت سلطة «جعفر» وكل واحد يعرف أن جعفراً والخليفة اعداء!

فأجاب علي وكأن امله قد فارق قلبه كما تفارق الرمال أصابع اليد لحظة تسربها من خلالها :

–كل طفل يعرف ذلك!

– اذا جاء الخليفة الى هنا فربما ينقذ حياتك.. ولكن لم يسبق ان رأى احدٌ الخليفة في سجن جعفر المرعب. ولكن.. هل قلت قبل قليل بأن سيدك كان قد قضى عشر سنوات سجيناً في جزيرة منعزلة؟

– نعم اسمه «آسوكا» وهو..

فصرخ الغريب قائلاً :

– توقف. هل قلت آسوكا؟

– نعم هذا اسمه وهو يبحث عن....

– احمد.. احمد الذي سرق قبل اثنتي عشر سنة مضت.

– وكيف عرفت هذا؟ انه سرٌ..

– هُسْ.. انا ايضاً اعمل في خدمة حاكم هندستان وبأمره جئتُ عبر الجبال الى «سعود» لأبحث عن حلفاء هندستان، حيث ان الخليفة واصدقاءه هم حلفاء لحاكم هندستان.. ولكن خصمه لديه اصدقاء ايضاً هنا مثل جعفر وايضاً هناك اثنان من القراصنة هنا في بغداد وهم اعداءنا... وعندما سيموت حاكم هندستان فان خليفته سيطلب المساعدة من كل من يحالفوه ليعطوه جنداً ويحمل تاج هندستان، ولسوء حظي فاني وقعتُ بين يدي جعفر وسيقتلني رجاله قريباً في هذا السجن.

– ولكن لنفرض اننا عثرنا على الأمير احمد فما الذي سيحدث وقتها؟

– احمد.. نعم انه الأمير وهو قادرٌ على طرد خصم ابيه.

وسيتبعه عشرة الآف شاب وبقية شعب هندستان.. وسيذهب خلال الجبال الى وطنه.

– آسوكا يقول ان الأمير في «سعود» او ربما في البصرة او في بغداد يجب ان نجده. اصغ! ماهذا الصوت؟

سمعا بضع خطوات صادرة من الأعلى، ثم ضوضاء مفتاح ثقيل دار في القفل وصرخ صوت عظيم :

–بأسم الخليفة... السلام عليكم...

وساد صمت مفاجيء ثم أستأنف الصوت قائلاً :

- هارون الرشيد يامر علي الشحاذ واللص وفتى المقصورة بان يخرج ويمثل امامه !

فصرخ الغريب وهو يمسك بذراع علي :

- الله. انه يقصدك.

فقال له علي بمرح : - ماذا قلت لك؟ سأذهب حالاً..

ولكن الغريب أستوقفه قائلاً..

- حاول ان تجد «انانداه» في بيت هارون الرشيد واخبره بأن خادم حاكم هندستان «سار» موجود هنا.. ومعه رسالة سرية من الحاكم.

- حسناً سأفعل.

كانت الغرفة تغص بالضباط والجنود وهم يرتدون البزات العسكرية ويقفون امام رجل ذي لحية مشذبة وهو يرتدي عمامة خضراء وثوباً رمادياً وقد كان هذا هو هارون الرشيد وقد وقفَ على احدى جهتيه جعفر وعدد من خيالته ذوي الملابس السوداء.. فرمى علي بنفسه الى الأرض امام الخليفة... فقال له :

- (قف يابني... لقد اخبرني السندباد عنك واحببت ان أراك.

فشعرَ علي بالسرور حتي انه لم يقدر على الأجابة فأردف الخليفة :

- اثنان من الفرسان اعتقلاك اليوم مبكراً وعاملاك بقسوة وقد سمعت ذلك من السندباد.

- نعم.

كانت هذه الكلمة اجابة علي الوحيدة وراسه مسند بيديه امام صدره

- سيعاقبان كلاهما حالاً.

كانت هذه المرة الأولى التي يرى فيها علي رجلاً طويلاً عنيفاً يرتدي ملابس سوداء وله عينان سوداوان وشفتان رقيقتان انه جعفر الذي قال.

- سوف يعاقبان ايها الخليفة... سأستدعي كل الفرسان الذين كانوا يتجولون في بغداد هذا الصباح.

وقد حدث ان سار علي الشحاذ بصحبة هارون الرشيد خلال الممرات الطويلة والى الخارج حيث ضوء النهار وكان في انتظارهم صف طويل من الفرسان وهم صامتون وواقفون باعتدال يرتدون نفس الزي وكأنهم جميعاً شخص واحد.

- أرنيْ الخيالين اللذين اعتقلاك ايها الشحاذ الصغير.. واذا لم تقدر على ذلك فهذا يعني انك كاذب.. ويجب ان تعود الى السجن.

- ونظر علي الى وجه جعفر وقد انبعث ابتسامة قاسية من وجهه.

- وفرضاً انني عثرت على الفارسين.. ماذا بعد ذلك يا جعفر العظيم؟

فقال الخليفة :

- ان الفتى يتكلم بالحق.. اذا لم يجد الرجلين يجب ان يعود للسجن.. اما اذا وجدهما فانك يجب ان تلبي له طلبه !

- اذن فليرنا الرجلين !

- اجعل الرجال يقفون على الأرض تاركين خيولهم حتى استطيع ان اراهم جيداً..

وهكذا اعطى جعفر الأمر لخمسين فارساً بان يترجلوا.. وهم يعتمرون ملابس سوداء.. وقفوا وكأنهم صف واحد امام الفتى الأسمر الصغير.. فأخذ علي يتأمل وجوههم القاسية واخيراً وجَدَ ما كان يبغي،

فصرخ :-

– هذا واحد منهما ..
فسأل جعفر الخيّال :– هل قبضت عليه في هذا الصباح ؟
– نعم !
– من كان معك في الدورية ؟
– حليف بن حسين .
– خذوهما اني لااريد ان اراهما بعد الآن .. هذا الفتى لابد ان يكون شيطاناً !
فقال الخليفة : انه حقاً ذكي .. كيف استطعت ان تتعرف على الرجل ياعلي ؟
– لقد لاحظت ان الرجل الذي سحبني لا حواجب لديه وهنالك جرح طويل فوق عينه اليسرى .
– الآن استطيع ان اصدق كلما قاله لي السندباد عنك .
وعندما انهى الخليفة كلامه اسقط ثلاثة دنانير ذهبية في يد علي ثم التفت الى جعفر قائلاً :
– والآن يا جعفر يجب ان تنفذ وعدك بان تؤدي الخدمة التي يطلبها الفتى .
– انني اريدُ شيئاً واحداً فقط ياسيدي .. هناك في السجن صديق لي من هندستان اسمه (سار) انه مبعوث حاكم هندستان وهو يريدُ ان يرى خادمك (اناندا) .
فقال الخليفة : حرر هذا الرجل واجلبه لي حالاً .
ونظر الخليفة بغضب الى جعفر .. فيما نظر جعفر بدوره الى علي نظرةً ملؤها الكراهية .

– وقال : كما تتمنى ايها الخليفة .
وهنا قال الخليفة لعلي :
– تعال معي ايها الصديق الصغير ها قد اطلقت سراحك ..
وهكذا قال علياً الشحاذ الصغير يرافق الآن الحاكم العظيم ويخرج من الدهليز المظلم الى شوارع بغداد ، حيث ضوء الشمس وهو يحمل في يديه ثلاثة دنانير ذهبية .
وبعد عدة ساعات كان علي قد اخبر جدته بكل تفاصيل رحلته العجيبة بينما كانت هي جالسة على ارضية الغرفة تصغي اليه وكان الضياء المنبعث من مصباحها النحاسي يلقي بظل كبير لراسها على الجدار العاري وكان علي يخبرها بسعادة بكل شيءٌ .. وكانت علامات الحيرة ترتسم على فمها بينما كان علي يروي قصته .. وبعد ان انتهى ، قالت له :
– شكراً لله فأنك لم ترتكب اية حماقة طوال رحلتك ..
فاجاب وهو يخرج من ثوبه حفنة من المال ويسقطها في يدها قطعة قطعة .
– لاحماقة ياجدتي ! لو انك شحذت عشر سنوات عند بوابة المدينة فانك لن تحصلي على نصف هذا المبلغ .. ولاتوجد قطعة واحدة منه مسروقة ..
– لاتكن متفاخراً هكذا بحظك السعيد يا عزيزي .
– ولكن ياجدتي هذه القطع الثلاث اعطاها لي الخليفة هارون الرشيد وقد مشيت معه اليوم ، وهذه القطع من السندباد ، وهذه القطع الجميلة اعطاها لي «آسوكا» من هندستان والذي انا خادمه وقد دفعها لي كأول اجر استلام منه .

- وفكر عليّ لحظة ثم اضاف ..
- وساعطيها لك ياجدتي ..

لم تصدق السيدة العجوز اذنيها فأشعت القطع الذهبية في ضوء المصباح ولمست باصابعها النحيفة هذه الأموال غير المتوقعة وقال علي :

سأشتري لك ثوباً وغطاء راس وخبزاً وفاكهة في كل يوم .

ومرر يديه خلال شعره الطويل دافعاً اياه خلف اذنيه .

- سوف احصل على اكثر من هذا حالما اعثر على المصباح السحري .
- اوَلم تجده خلال الرحلة ؟

وضحكت السيدة العجوز أذ انها في قرارة نفسها لم تكن تصدق حكاية المصباح السحري منذ البداية، اذ ان الأطفال فقط والاغنياء هم الذين يصدقون مثل هذه الحكايات .. وحفيدها يتصرف يوماً كطفل وآخر كغني .. فقالت وهي تطفئُ المصباح :

- دعنا نخلد الى النوم ..

فوجد الفتى طريقه في الظلام الى سريره واضطجع يصغي الى شخير جدته وكان يحس بكل شيءٌ هاديءٌ خلف الستارة المؤدية الى الشارع .. وكان لايزال يفكر في المصباح الذي يأمل ان يجده .. المصباح الذي يجعل الشحاذ اثرى الأثرياء .. ثم تذكر امير هندستان الضائع .. مجهول ومفقود في ارض غريبة .

- اللهم احفظه واحمِهِ من اعدائه واعدة سالماً الى وطنه .. ثم غط في النوم ولكن احلامه كانت كوابيس فحلمَ انه في السجن المظلم وبين رجال جعفر ذوي الثياب السوداء، وحلم بجنود خصم هندستان والمتمرد على عرشها وهم يبحثون عن الأمير احمد ليقتلوه. وكان علي يتقلب بين

آونة واخرى في نومه وسمع صوت جياد وضوضاء فرفع رأسه ونظر خلال النافذة الى الشارع فلم يكن هناك احد. ولكنه كان يسمع اصوات جياد تقتربُ شيئاً فشيئاً وفي نهاية الشارع رأى العديد من الخيالة وحالما رآه احدهم صرخَ وهو يشير اليه فاندفع علي من خلال اقرب طريق عائد الى قلب الغرفة، فسقط رأسه على اعقابه ثم تدارك الأمر بسرعة وصعد على السطح عن طريق الدرج المؤدي الى السطح. وسريعاً كان في الأعلى ينظر الى اسفل حيث الشارع وقد كان مليئاً بالخيالة فنظر احدهم الى اعلى ورأى رأسه فوجد علي بقربه سنداناً كبيراً من الفخار فدفعه الى اسفل فسقط بضوضاء كبيرة على رأس الفارس وكم كان منظره مضحكاً وهو يصرخ مستغيثاً !

بغداد مدينة الألف سطح والمئة شارع .. كان علي يتقافز فيها من سطح لآخر وخلال صف من المنازل الى صف آخر هنا وهناك كان الخيالة ذوو المعاطف السوداء يتسلقون على السطوح في منظر يثير الدهشة خمسون فارساً وراء صبي واحد صغير .. ولكن اي صبي ؟!

وشيئاً فشيئاً كان علي يتحرك تجاه النهر اذ لم يبقَ له مهرب سوى الألتجاء للماء، فغاص عميقاً في نهر دجلة وسبح تحت سطحهِ وخرجَ ثلاث مرات يتنفس وكان في كل مرة يلاحظ رجال جعفر على الساحل وقد تزايدوا عدداً .. كان كل واحد منهم يمتطي فرسه على طول جسر القوارب وكان بعضهم يصرخون باتجاهه وآخرون يلاحقونه بالقوارب .

واقتربت القوارب منه شيئاً فشيئاً .. وغاص هو بعمق .. ولكن كان عليه ان يصعد الى السطح لاستنشاق الهواء .. فصعد الى الأعلى تحت واحدٍ من القوارب وامسك بموضع الدفة من الأسفل وبذلك صار

بامكانه ان يستريح قليلاً وان يأخذ انفاسه .. وكان الخيالة يبحثون عنه .. وهم مستعدون لاطلاق نبالهم عليه حال ظهوره بينما كان هو على بعد اقدام منهم ولكنه غير مرئي وسالم .

وفي هذا الوقت كانوا يتحركون على طول تعرجات الشاطئ تجاه حدائق الأثرياء حيث الأشجار العالية والزهور. والعشب الأخضر كان نامياً الى يمين حافة النهر وكانت المياه تتراكض في السواقي من الحدائق الى النهر لتصب فيه .

فراقب علي واحدة من هذه القنوات الصغيرة اذ انها طريقه الوحيد للهرب اذ انه لو القي القبض عليه الآن بواسطة رجال جعفر فانه سيعود الى السجن المظلم الى الأبد .

وحالما اقترب احد القوارب امام واحدة من هذه القنوات إنسلَ علي سراً من تحته وقد كان متمسكاً باسفل موضع الدفة فأخذ نفساً عميقاً واسقطَ نفسه في ماء الساقية .

وسبح كسمكة بأسرع ما يستطيع وجاء الى السطح برفق حيث كان مختفياً بين ازهار جميلة لها سيقان طويلة وكان قد دخل عبر المجرى الى الحديقة واضطجع تحت ضوء الشمس على العشب الأخضر وصدقَ بصعوبة انه في مأمن اخيراً .

فقضى الهواء الجاف على بَلَلِهِ وغطَ في النوم بسرعة ، والخمسون فارساً مايزالوا يبحثونَ وينقبون وهم واثقون بان الصبي لايمكن ان يكون قد فرَّ وانما قد ماتَ تحت في قعر النهر .

واستيقظ علي وقد القت الشمس باشعة حارة على وجهه فجعلت من نومه غير ممكن .. وكانت حوله زهور زرقاء جميلة .

وملأت الهواء اغنية عذبة للطيور .. وعندما ادار رأسه ليرى اقرب شيٍ اليه وقد كان تعباً ميالاً للنوم ثانيةً فرأى اثنتين من الأقدام السمراء وفوق هاتين القدمين استقر ثوب ذهبي اصفر، وبدت فوق نهاية الثوب عينان مظلمتان تنظران اليه ثم صوت كأنه لطائر يتكلم قائلاً :– هل انت جني ؟

وعلمَ علي الآن انه لايزال حياً فابتسم وهزَ رأسه قائلاً :

– كلا انها الأخت الصغيرة لستُ جنياً .

– ولكنك تبدو كأحدهم ..

– لقد غصت كثيراً تحت الماء ثم خلال الرمل والطين .

– ولكن احداً لايقدر ان يدخل هذه الحديقة حياً لان حرس هارون الرشيد ينطرونها صباح مساء .

فقال علي مع ابتسامة :– حسناً يجب ان اعترف لك انني جني .

– انك اول جني اراه ! ماهو اسمك ؟

فاجاب علي بعد ان فكر في رد مناسب على سؤال كهذا .

– اني ادعى جني المصباح ..

– ياله من اسم لطيف . ولماذا تدعى كذلك ؟

– لانني يجب ان ابحث عن مصباح مخبأ في مكان ما في هذا العالم حتى منذ زمن الملك سليمان !

– اي نوع من المصابيح هو؟

– مصباح سحري .. مصباح رائع لعلاء الدين كما تعرفين !

فأومأت برأسها الأسمر الصغير بالأيجاب :

– نعم . اعرف يكفي ان تفركه ليظهر شبح ليعطيك كل ما تتمنى .

– نعم.. صحيح جداً

– وماذا تفعل في حديقة الخليفة ياجني المصباح؟

– انني ارتاح فقط بعد سباحة طويلة.. لا احد يجب ان يعرف أن هنالك جنياً مستقراً ها هنا.. اينها الأخت الصغيرة.. الاتحفظين سري؟ لم تقولي عن اسمك!

– اسمي فاطمة..

– حسناً.. اصغ الآن يافاطمة.. اريدك ان تحضري لي بعض الطعام وبعض الحرير الأزرق لاصنع منها عمامة وثوباً اصغر.. فاني سأنام الان.. ولكن يجب علي الأنصراف بعد ساعتين.. فهل تساعديني بهذا النحو ولاتخبرين احداً بذلك؟

– نعم سأفعل ولكن بعد هذا هل استطيع ان اتمنى شيئاً؟

وشعر علي بالأنزعاج لانه اذا ماساعدَ احدهم جنياً فان الجني لابد ان يلبي له طلبه وكيف له ان يلبي طلباً؟

ثم قالت الفتاة السمراء بجدية:

– عزيزي جني المصباح.. اريد المصباح السحري!!

وكان علي سعيداً جداً لسماعه هذا الكلام

– حسناً ستناليه ولكن فقط بعدما اجده انا..

ثم تحركت الأوراق وسقطت زهرة حمراء الى الأرض واختفت الفتاة وقال علي لنفسه:

– اي غبي انا لكي اعد بالمصباح السحري؟ فاذا ماوجدته الآن يجب ان أعطيه لهذه الفتاة.. ولكن كلا فانني مجبرٌ ان أفي بوعدي لو كنت جنياً فقط ولكن مادمت لست بجني فان كل شئ على مايرام.

فضحك واستلق ليغط في نوم عميق ثانية.. ثم ابتدأت الشمس بالغروب فاستيقظ ليجد قريباً من راسه وتحت الأوراق الخضراء بعض التمر واشياء اخرى للاكل وقطعة من الحرير الأزرق وطولاً من القماش الأصفر ففكر في نفسه:

– يااللفتاة المسكينه لقد جلبت لي اكثر حتى مما طلبت.

وعندما جاء المساء ارتدى العمامة والثوب وغاص تحت الماء وسبح في النهر المظلم الى خارج المدينة.

وبعد يومين فان علياً لم يعد يرى في بغداد.. وكان مختبئاً في الريف على بعد ساعات من المدينه وكان يجلس على حافة خشبة صغيرة بقرب الطريق المؤدي الى الجبال وكان الجو حاراً وجافاً وهبت ريح خفيفة حركت الأوراق الجافة على فروعها في الأشجار الصغيرة، وكانت تغطي قمم التلال صخور حمراء وصفراء.

وتحت علي كانت الظلال تتحرك على طول الطريق القريب منه وكان علي يسأل نفسه عن ماهية القادم اليه وهو محتار ايهرب ام لا.. فالقى نظرة راى فيها حماراً ثم آخر بقربه واخر قادمين من بين الصخور وعلى ظهورها كانت هناك حزم كثيرة من الخشب وخلفها كان يمشي رجل بدا مالوفاً له.. انه علي بابا.. صديقه القديم فصرخ علي:

– ياصديقي القديم! انظر هنا..

فرر تاجر الأخشاب ذو اللحية الحمراء يده فوق عينيه ثم قال:

– بالتأكيد هذا علي الذي اختفى في نهر دجلة منذ يومين مضيا!

– آه نعم..

– ولكن ها أنا هنا سليم ومعافى..

علي بابا.. وفرك يديه بسرور.. فسأله علي.

- اية اخبار سارة تحمل من المدينة؟

- اخبار عظيمة ايها الصديق الصغير. اذ ان سفير هندستان وصل الى بغداد البارحة.

- حقاً.. رجل طويل بلحية فضية.

- نعم. كيف عرفت ذلك؟ وامير هندستان سيظهر في بغداد.

- متى؟

- غداً او الذي يليه.. هارون الرشيد (ليحميه الله) جعل خيالة جعفر يحملون النبأ الى كل المدينة.. كل فرد ينتظر الأمير احمد ليظهر.

- هل سيمر بالبصرة؟

- لااحد يعلم.. اذ ان الخليفة قد فتح كل ابواب المدينة.. سجادات حمراء وزرقاء قد فرشت للأمير احمد كي يسير عليها.

- وانا مختبئ هنا كالافعى، وكل هذا يحدث.

- نصيحتي لك ان تبقى هنا فان رجال جعفر سيقتلونك حالما يظفرون بك.

- آه.. حسناً سأنزل اذ ان لي ثوباً اصفر وعمامة من الحرير الأزرق اذا أرتديتها فان احداً لن يرى علياً الشحاذ بعد الان.. يجب ان ارى احمد امير هندستان.. وكذلك فان سفير هندستان سيحميني ولاشك.

- طبعاً السفير العظيم لاينتظر سوى الصبي الشحاذ كي يصل.

- ولكن يجب قبل كل شئ ان اجد الصوفي.. انه يعيش في مكان قريب من هنا. هل تعرفه؟

فسأل تاجر الأخشاب: - هل ان اسمه «بابا» كأسمي؟

فاشار علي بابا بيده:

- اذهب هناك حيث توقفت الحمير، ستجد طريقاً ضيقاً بين الصخور امشي فيه لنصف ساعة. وتغلغل بين الجبال واحذر من الأفاعي.. عضة واحدة من احداهن وستموت حالاً.. سوف تجد الصوفي هناك في الأعالي سوف يقول لك شيئاً.. اني اقابله غالباً.. ولكنه لم يتحدث معي ابداً.. والآن يجب ان اذهب ايها الصديق الصغير وداعاً.

وبهذه الكلمات خطا تاجر الاخشاب عبر صخره وصرخ لحميره وتابع رحلته.

الفصل السادس

علي يقابل الصوفي

بعد نصف ساعة من المسير الشاق وجد علي كهف الصوفي حيث كان الصوفي واقفاً وهو يرتدي ثوباً طويلاً خاصاً وقد لف حبلاً على خصره، وكانت هناك حية واقفة في الرمل امامه..

فأمسك علي أنفاسه بخوف وتحركت الأفعى ببطء بعيداً وكانت عينا الصوفي قد تركزتا على وجه الصبي وذراعاه مكتفين على صدره.

فأنحنى علي امامه وهو ينظر في عينية بشجاعة فقال :

- السلام عليك ياأخ الحاضر.

وعلمني الطريقة الصحيحة للكلام مع اي صوفي.. فجاءت ابتسامة الى شفتي الصوفي فقال له علي :

– «آسوكا» سفير هندستان قد ارسلني اليك.

وكانت عينا الصوفي لاتزالان تتفحصان وجه علي... فغرز علي اصبع قدمه الكبير في الرمل الناعم.. فقال الصوفي :

– تكلم ايها الأخ الصغير.

– لدي سؤال اطرحه عليك.. ياأخ الحاضر.. انه عن المصباح السحري الذي يلبي كل رغبه.. لقد سألتُ كل واحد عنه ولم يخبرني أحد اين هو! فماذا يجب ان افعل لاجده؟ انه مصباح رائع جداً يعود لعلاء الدين..

فقال الصوفي : – لقد بحثت بعيداً جداً وقد كلمت ناساً كثيرين عن المصباح والآن اغلق عينيك..

فنفذ علي كلام الصوفي وأحس بركبتيه ترتجفان وتوقع ان يحدث شيئاً سحرياً.. فسأله الصوفي : – ماذا تستطيع ان ترى الآن؟

– لاشيء!

– اوقف اذنيك عن السمع للحظة...

وعندما ابعد علي يديه عن اذنيه سأله الصوفي : – ماذا تسمع؟

– لاشيء..

– والآن ايها الشقيق الصغير... لقد كنت تبحث عن المصباح بعينيك وتصغي اليه بأذنيك... وهل تعلمت اي شيء عنه؟

– لا أعرف..

– اذن فقد خطوت الخطوة الأولى.. لقد قلت «لا اعرف» والخطوة الثانية تدعى «المعرفة»..

– ولكن ماذا يجب أن اعرف؟

– الحق!

– ماذا؟

– انه ليس كشيء له حياة... انه شيء لاينمو ولايموت... ولايرى ولايسمع ولكنه يبقى على حاله دائماً دون تَغَيير.

ايها الأخ الصغير... لابد لك أن تدرك ان هذا المصباح هو مصباح اعتيادي كأي مصباح آخر تراه في اي مكان في بغداد. مظهره ولونه والمعدن المصنوع منه ليس مهماً... المهم هو اللهب الذي يشع من فمه واسم هذا اللهب هو الحق..

والحق هو مايجب ان تجده.

فتعجب علي عندما سمع هذه الكلمة : «الحق»... انها كلمة غريبة جديدة تضاف حول الغموض المحيط بالمصباح..

المرة الأولى سمع كلمة «قالاه» والآن يسمع كلمة «الحق» ولم يبقِ الصوفي في حيرته اذ سأله :

– هل فهمت ايها الأخ الصغير.

فهز علي راسه ببطء ليعبر عن عدم فهمه ثم قال :

– كلا يا أخ الحاضر.. لم افهم كلمتك ولكنني اشكرك واطلب اليك ان تخبرني ماذا تعني كلمة «الحق» ثم سأنصرف :

– الحق ايها الأخ الصغير هو الحقيقة والناس المخلصون هم فقط الذين يجدونه.. عندما تستعمل فقط عينيك واذنيك.. عند ذلك ستمسك بمصباح اعتيادي... عندما يصفو قلبك ويصبح شريفاً فانا هذا المصباح الاعتيادي سيصبح مصباح علاء الدين العجيب.

فانحنى علي راسه اجلالاً وعندما رفعه ثانيةً كان الصوفي قد دخل الكهف..

ووجد علي الطريق الى بغداد ثانيةً عندما اظلمت الشمس. وكان منتصف الليل قد حل قبل ان يصل النهر. فعبره بعيداً عن جسر القوارب سباحة.. ولم يرى راسهُ احد سوى النجوم البراقة التي استطاعت ان ترى لفة من الحرير على راسه وقد شد اليها ثوبه عندما عبر ببطء. الى الضفة الآخرى..

وانزلق خلال الشوارع بحذر وبدون ضوضاء. ووصل البيت فرفع الستارة ودخل البيت الفقير والقى بنفسه على السرير.

فاستفاقت جدته قائلة :

– ها قد عدت َ ثانيةً.. اذن الخيّالة لم يستطيعوا الأمساك بك... وحتى انك لم تغرق في نهر دجلة.

واستطاع ان يسمع صوت قهقهتها في الظلام وقال :

–كلا كما ترين !

–يجب عليك مغادرة البيت قبل الصباح فأنهم قد يجدونك هنا !

–كلا.. اذ ان لديهم شيئاً أخر يهتمون به الآن ياجدتي. ان بغداد تنتظر الأمير أحمد من هندستان وغداً سأذهب الى البلاط ولن يحدث شيء لي.. والآن يجب أن أخلد الى النوم.

وكان جائعاً جداً ولكنه كان تعباً أيضاً بحيث نسي جوعه وغط في نوم عميق.

وعندما استيقظ علي كان الصباح قد حل وكانت جدته قد خرجت واستطاع بصعوبه ان يتذكر من هو؟ علي الصبي الشحاذ ام علي خادم

سفير هندستان ام علي الذي يبحث عن المصباح السحري وامير هندستان.

ونظر باتجاه المصباح القديم على المائدة المنخفضة قرب سرير جدته «انه كأي مصباح آخر» كما قال الصوفي. فسار عبرَ الغرفة واخذ المصباح القديم بيديه انه بطول القدم – لطيف هاديء منذ عدة سنوات وهو يخرج لهباً يضيء الغرفة الصغيرة فأضاء علي المصباح وحمله بين يديه وجثا على الأرض وعندما دخلت جدته الى الغرفة وجدته على هذا الحال وقد جلبت خبزاً للأفطار فقالت في نفسها : – يالغباء هذا الصبي.. يضيع الزيت في ضوء النهار.

فسألها علي : – من اين حصلت على هذا المصباح؟

ففكرت الجدة في نفسها قائلة :

لقد جُنَّ الصبي.

ولكنها صاحت بصوت عالٍ : – لقد جلبت والدتك هذا المصباح معها من البصرة.. ياحفيدي عندما جلبتك الى مدينة السلام توفيت.. يابنتي المسكينة! وتركتك معي.. انه هدية من بحار!! انك لست سوى غبي! آه ياحفيدي المسكين!

وكان اللهب يخرج بشدة من المصباح الآن ووصلت رائحة الزيت المحترق الى انفه.. «فقط عندما تكون مخلصاً ورجل حق فانك سوف تدرك المصباح السحري» كان هذا ماقاله الصوفي..

– هل انا نقيٌ وشريف؟

فأغلق عينيه وفكر في الفتاة الصغيرة التي لاقاها في حديقة الخليفة.. وتذكر وعده لها لو كان هذا المصباح هو مصباح علاء الدين فانه سيعود

لتلك الطفله. لانه وعدها به.

«يجب ان اكون شريفاً ولذلك فان هذا المصباح من الممكن ان يصبح مصباح علاء الدين.. اما اذا كنت منافقاً فانه سيكون مجرد مصباح اعتيادي قديم»

ثم فتح عينيه ثانيةً واصبح اللهب مشعاً بقوة بحيث انه استطاع بصعوبه ان ينظر اليه.. ثم تذكر فجأةً الكلمة: «الحق» فصرخ انه الحقيقة!

واخذ الحرير الأزرق ولفهُ على رأسه وجعل منه عمامة راس، واسقط ثوبه الأحمر القذر من على جسده والتقط بيدة الثوب الأصفر الجميل وشده نحو جسمه... واطلق ضحكة مرحة وصيحة فأحنت جدته رأسها الى الأرض خائفةً ان يكون قد فقد عقلة تماماً، وقريباً سيرى سفير هندستان.. رجال جعفر لن يتذكروه.

قريباً سيرى الأمير الشاب «أحمد» الذي سيدخل بغداد وهو يسير على السجادات الباهضة الثمن والتي بسطت خصيصاً لأجله.

وأنحنى علي والتقط المصباح القديم.. واستدار نحو النافذة وعندما سحب الستار القذر جانباً صرخت السيدة العجوز بخوف وغطت وجهها بيديها لان عينيها الضعيفتين تألمت بسبب ضوء مشع صدر من بشرة جبين علي!

ثم ترك علي جدته وانحدر يسير في الشارع القريب من داره متجهاً نحو قصر الخليفة.

الفصل السابع

الى هندستان

لقد كان رجال جعفر في كل مكان يصدرون الأوامر مابين الحشود الضخمه التي وصلت الى المدينة لرؤية الأمير الهندي.

ولم يعرف واحدٌ من رجال جعفر علي الشحاذ في ملابسه الجديدة..

وكان علي يحمل مصباحه النحاسي بحذر ووصل صوب جدران القصر البيضاء وكانت البوابة مفتوحة وهارون الرشيد يتوقع وصول امير هندستان بين آونة واخرى.

وكان هناك جنود بعمامات براقة حمراء وسيوف لماعة يحرسون الطريق الى البوابة ولكن علياً لم يهتم بكل ذلك لقد قدم لمقابلة امير هندستان ليريه المصباح العجيب..وليعطي المصباح لفاطمة ليكون نقياً وحقيقياً وشريفاً.

واقتربت اللحظة الحاسمة حين خرّ الجنود على وجوههم وظهر رجلٌ بلحية بيضاء جاء ليلاقيه ويداه ممدودتان..فقال علي:

– انظر ايها السيد الفاضل، هاهو المصباح السحري.

ثم جاء الخليفة ايضاً تجاهه ونظر اليه والى مصباحه.

– هذا هو المصباح الذي وعدتُ به فتاة عذبة سمراء كانت في حديقتك التي على جانب نهر دجلة منذ ثلاثة ايام مضت.

فقال هارون الرشيد

– هذه الفتاة الصغيرة هي اميرة بيشاوار وقد وعدها جني بالحصول على مصباح.

– نعم ولكن هذه ليست الحقيقة اذ انا لستُ بجني.

– ان اميرة «بيشاوار» تنتظرك كل هذا الوقت.. ومد الرجل ذو اللحية البيضاء ذراعيه وقال:

– هاهو اخيراً «احمد» امير هندستان!

فسقط المصباح النحاسي من بين يدي علي عندما سمع هذه العبارة وقال: – انا؟ انا؟

فقال «آسوكا»: نعم انت هو. انت الذي نسافر من اجله من ارض الى ارض.

– من اجلي:

– نعم ياصديق الأيام الأولى. لاجلك ايها الأمير «احمد».

– فجاء فارس الى الداخل بعد ان عبر الصخور المرصوفة في الساحة وترجل من على فرسه والقى بنفسه امام الأمير الصغير وصرخ:

– الا تتذكرني انا خادمك ايها الأمير. انا «سار» لقد كنتُ في سجن جعفر المظلم.

– الله..انت؟

– اعطنا الأمر لامتطاء الجياد فان خصم ابيك آتٍ من الشرق مع جنوده الاشرار ووالدك قد وضع امله فيك ايها الأمير احمد

– والدي؟

فهز علي راسه بالنفي ثم قال: والدي كان بحاراً!

– آن.. كلا ايها الأمير. البحار فقط حملك الى البصرة من هندستان

واعطاك لامرأة غريبة لانه لم يكن يريد لك الهلاك كما امره كبير وزراء ابيك الظالم..

– أمره بقتلي؟

– فقال آسوكا:

– عندما رأيتك على جزيرة «مولاك» لم تكن تبدو كفتى بحار أنك تبدو اكثر شبهاً بالأمراء رغم أنك كنت تفكر كشحاذ.. والآن يجب ان يعرف العالم انك الأمير «احمد» سيد هندستان– هندستان. عندما سمعت هذه الكلمه لأول مرة كان صوتها كالموسيقى.

وكان «سار» لايزال جاثماً على ركبتيه فقال له: – اعطنا الأمر لنذهب ايها الأمير «احمد»

فقال هارون الرشيد.

– تعال الى الظل ايها الأمير الصغير، لقد أنتصف النهار وقد اعددت لك وليمة وارجو ان تشرفني.. ان اميرة بيشاوار تنتظرك.

واحسَّ علي او الأمير احمد بان هناك مهاماً صعبة تنتظره، فلم يعر اهتماماً كبيراً لدعوة الخليفة وكان واقفاً بين «سار» الجالس على ركبتيه و «آسوكا» ذو اللحية البيضاء.. فاستدار الى آسوكا ثم سأله:

– هل ان الخائن كبير وزراء ابي هو الذي سرقني حقاً عندما كنت طفلاً؟

فاجاب «آسوكا» : – نعم يابني.

– واراد ان يقتلني؟

– نعم. لقد اراد ذلك.

– وبسببه عشت لا أعرف ابي او وطني.. عشتُ مشرداً كشحاذ في بغداد؟

- نعم.. كل هذا بسببه. فقد اراد ان يصبح حاكم هندستان بعد موت ابيك.
- وهو يحاول الان ان يهاجم بلادي من الشرق بجنود غرباء؟
- كل ماقلته صحيح، ولذلك فاننا بأمسِ الحاجة للسرعة ايها الأمير.. اذا كنت تريدنا ان نكون بسلام جميعاً.

ثم سحبَ الأمير نفسه بافتخار الى اعلى.. وبدا وكأن نوراً يشع من جبهته وقال:

اطالب كل الرجال المخلصين الذين يكرهون ان يسود الظلم ان يمتطوا جيادهم ويتبعوني!

فصرخ «سار» صرخة فرح ولوح الجنود بسيوفهم..وقفزوا على ظهور الجياد وسار الأمير احمد يتقدمهم.

احمد الذي كان قبل ساعة واحدة يدعى علي فقال:

- لو كان هناك الف فارس مثل «ساره» في بلادي لضاع كبير الوزراء الظالم وتبددت جنوده.

وانحنى الخليفة وابتسم «آسوكا» عندما استدار احمد ليتبع هارون الرشيد الى مقره ليقابل اميرة «بيشاوار»

وليجلس على المقاعد الوثيرة ويتناول افضل الطعام ويشرب احسن المشروب ووضع احمد المصباح بيدي الأميرة الصغيرتين، انه المصباح الذي وعدها به.

وفرحت الأميرة به وخصوصاً عندما عرفت كم هو قديم وعتيق العهد. وعندما اخبرها الأمير بقصته سألته عن جدته المسكينه وأمتلأت شوقاً وعطفاً لرؤياها فقالت:

- هذا المصباح يعود الى جدتك ايها الأمير احمد، وليس لي. يجب الا تجلس جدتك في الظلام هذه الليلة.
- مادام الأمر كذلك.. يمكنك ان ترجعي لها المصباح بنفسك، وسترين انها لاتريدُ شيئاً عندما اكونُ بعيداً.
- سأفعل ياجني المصباح.

وضحكت فاطمة ضحكة مرحة وقالت:

- سوف اخبرها بان حفيدها ليس غنياً بل أنه أمير مشهور.

وسمعت الف صرخة تصيح طلباً لاحمد في هندستان وأستقبلته المدينة بأسرها عندما ركب اليها داخلاً من الشرق متبوعاً بالشباب وبعد ذلك ركب علي عبر الجبال مع جيش عظيم حاملاً علمه الى هندستان..

وبعد قتال مرير تمكن احمد ان يحز راس خصم ابيه..

ثم وصل احمد الى قصره وانحنى امام والده الملك حاكم هندستان وقبل يديه..